

سورة الكهف (الآيات: 19 - 20)

6

سورة الكهف

أهداف الدرس

- 1- أن أقف على مشهد استغراب الفتية بعد الاستيقاظ.
- 2- أن أثبت أن التوكل على الله لا يتنافى مع اتخاذ الأسباب.
- 3- أن أحرص على حسن التصرف والتحلي بقيمة الرفق في حياتي.

تمهيد

بعد أن تحدثت الآيات الماضية عن مظاهر العناية الإلهية بفتية الكهف، جاءت الآيات الآتية لتصف مشهد بعثهم ويقظتهم من رقدتهم الطويلة.

فكيف وصفت الآيات مشهد استغراب أصحاب الكهف واندھاشهم بعد اليقظة؟ وماذا طلبوا بعد استيقاظهم؟ وما هي الدلالات الإيمانية والتربوية المستفادة من الآيات؟

الآيات

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ فَايُّكُمْ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ فَاَلَوْ
لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَالْوَارِثُ بِكُمْ وَأَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ فَلْيَدْ
إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْسُقْ أَتْلَقَ الْأَرْكَامَ صَاعًا بِقَلْبَاتِكُمْ بِرِزْقِ مِّنْهُ وَلِيَتَلَكَّصَفَ
وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۚ ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي
مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ۚ ﴿٢٠﴾﴾ [الكهف: 19-20].

الفهم

الشرح:

بَعَثْنَا لَكُمْ: البعث التحريك عن سكون، والمراد هنا: الإيقاظ من النوم.

لَيْسْتُمْ: مكثتم.

بِرِزْقٍ: طعام وقوت.

استخلاص مضامين الآيات:

1- كيف صورت الآيات حال الفتية بعد الاستيقاظ؟

2- ما هو أول تصرف للفتية بعد استيقاظهم؟

3- بم أوصى الفتية مبعوثهم الذي أرسلوه ليلتمس لهم الطعام؟

التفسير

اشتملت هاتان الآيتان على ما يأتي:

أولاً: بعث الفتية من رقدتهم الطويلة:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَا لَكُمْ لَيْتِسَاءَ لَوْلَا بَيِّنَةٌ﴾. الإشارة بـ ﴿ذلك﴾ إلى الأمر الذي ذكر الله في جهتهم، والعبرة التي فعلها فيهم، و«البعث» التحريك عن سكون، واللام في قوله: ﴿لَيْتِسَاءَ لَوْلَا﴾ لام الصيرورة، ويعني بلام الصيرورة ما يصير إليه أمرهم، وتسمى لام الأيلولة، أي: ما يؤول إليه أمرهم، ولام العاقبة أيضاً، كقوله تعالى: ﴿لَيَكُونَنَّ لَكُمْ عَذَابٌ وَآوَةٌ﴾ [القصص: 7]. وحملها الطبري رحمه الله على مجرد التعليل، فقال: «كما أرقدنا هؤلاء الفتية في الكهف، فحفظناهم من وصول واصل إليهم، وعين ناظر أن ينظر إليهم، وحفظنا أجسامهم من البلى على طول الزمان، وثيابهم من العفن على مر الأيام بقدرتنا، فكذاك بعثناهم من رقدتهم، وأيقظناهم من نومهم، لنعرفهم عظيم سلطاننا، وعجيب فعلنا في خلقنا، وليزدادوا بصيرة في أمرهم الذي هم عليه من براءتهم من عبادة الآلهة، وإخلاصهم لعبادة الله وحده لا شريك له، إذا تبينوا طول الزمان عليهم، وهم بهيئتهم حين رقدوا». [جامع البيان: 9 / 216].

وقوله: ﴿لَيْتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾، أي ليسأل بعضهم بعضاً، ثم بين ما جرى في هذه المسألة فقال: ﴿قَالَ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ مِنْهُمْ...﴾، فيه إيهام القائل، لعدم تعلق الفائدة بذكره وتعيينه، كما في قصة يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ مِنْهُمْ لَا تُفْتَلُوا يَوْسُفَ﴾ [يوسف: 10].

وفي ذلك أيضاً أنهم بُعثوا دفعة واحدة أو متقاربين، بحيث لم يشهد أحدهم استيقاظ الآخر. قال ابن كثير رحمه الله: «ولهذا تساءلوا بينهم: ﴿كَمْ لَيْشْتُمْ﴾؟ أي: كم رقدتم؟ ﴿قَالُوا لَيْشْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ كان دخولهم إلى الكهف في أول النهار، واستيقاظهم كان في آخر النهار؛ ولهذا استدرکوا فقالوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْشْتُمْ﴾ أي: الله أعلم بأمركم، وكأنه حصل لهم نوع تردد في كثرة نومهم، فالله أعلم، ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب». [تفسير القرآن العظيم: 4 / 375].

ثانياً: تحريّ الفتية الطيب الحلال:

قال تعالى: ﴿فَابْتَغُوا لَهُمْ يَوْمَئِذٍ مَوَاقِفَ﴾، أي: أرسلوا أحداكم بفضتكم هذه، أي: نقودهم المضروبة من الفضة. وفي لفظ ﴿ورقكم﴾ قراءات، فقد «قرأه عامة قراء أهل المدينة وبعض العراقيين بفتح الواو وكسر الراء والقاف. وقرأ عامة قراء الكوفة والبصرة: ﴿يَوْمَئِذٍ مَوَاقِفَ﴾ بسكون الراء وكسر القاف. وقرأ بعض المكيين بكسر الراء وإدغام القاف في الكاف، وكل هذه القراءات متفقات المعاني وإن اختلفت ألفاظها، وهن لغات معروفات من كلام العرب، غير أن الأصل في ذلك فتح الواو وكسر الراء والقاف، لأنه الـوَرِق، وما عدا ذلك فإنه داخل على اللفظ طلباً للتخفيف». [جامع البيان: 9 / 223 بتصرف].

وقالوا: ﴿يَوْمَئِذٍ مَوَاقِفَ﴾ لأنهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها، فتصدقوا منها وبقي منها بقية. وقولهم: ﴿إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ أي: مدينتكم التي خرجتم منها والألف واللام للعهد. وهذا يدل على أنها لم تكن بعيدة من كهفهم الذي أووا إليه.

وقوله: ﴿فَلْيَنْهَضْزِزُوا زَكَاةً أَوْ كَهْزَاةً﴾ قيل: أطيب وأطهر. ومنه سميت الزكاة زكاة لأنها تطيب المال وتطهره. وقيل: أكثر طعاماً، ومنه قولهم زكا الزرع إذا كثر ونما. وقيل: أرخص. «وَقِيلَ: أَكْثَرُ بَرَكَاتٍ وَرِيْعًا». [البحر المحيط: 7 / 156].

ويحتمل أن يكونوا عنوا بقولهم: ﴿فَلْيَنْهَضْزِزُوا زَكَاةً أَوْ كَهْزَاةً﴾ أيها أهل، من أجل أنهم كانوا فارقوا قومهم وهم أهل أوثان، فلم يستجيزوا أكل ذبيحتهم.

وقوله: ﴿فَلْيَنْذِرْ آيَاتَهَا﴾ يجوز أن يكون من نظر العين، ويجوز أن يكون من نظر القلب، وأضاف «أي» إلى ضمير المدينة، والمراد به أهلها، لأن تأويل الكلام: فلينظر أي أهلها أركى طعاماً؛ لمعرفة السامع بالمراد من الكلام. فإذا كان كذلك فهو مجاز مرسل، من باب إطلاق المحل وإرادة الحال، أو من قبيل المجاز بالحذف، حيث أطلق المدينة وأراد أهلها، كما في قوله تعالى: ﴿وَسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: 82] أي: أهلها.

وقد عطف الفعل في ﴿فَلْيَنْذِرْ آيَاتَهَا﴾ على ما قبله في ﴿فَابْتَغُوا﴾ فالجمله فيهما فعلية إنشائية، واللام لام الأمر، والفاعل ضمير يعود على قوله: ﴿أَهْدِكُمْ﴾. وقوله: ﴿آيَاتَهَا﴾ مفعول به مبني على الضم لإضافته وحذف صلتة.

ثالثاً: أمر الفتية مبعوثهم بالرفق واللين:

قال تعالى: ﴿فَلْيَاتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلِيَتَلَفَّ﴾، أي: فليحضِرْ لكم طعاماً، والضمير عائد على قوله: ﴿آيَاتَهَا﴾ أو على ﴿كُحَّاماً﴾.

وقوله: ﴿وَلِيَتَلَفَّ﴾ أي: وليترَفَّقْ في شرائه ما يشتري، وفي سيره في طريقه وفي دخوله للمدينة. قال الزمخشري: «وَلِيَتَلَفَّ اللَّطْفَ فِيمَا يُبَاشِرُهُ مِنْ أَمْرِ الْمُبَايَعَةِ حَتَّى لَا يُغْبَنَ، أَوْ فِي أَمْرِ التَّخْفِي حَتَّى لَا يُعْرِفَ». [الكشاف: 2 / 710]. وقرأ الجمهور ﴿وَلِيَتَلَفَّ﴾ بتسكين اللام، وقرأ الحسن «وَلِيَتَلَطَّفَ» بكسر اللام.

وقوله: ﴿وَلَا يَشْعِرْ بِكُمْ أَحَدًا﴾ أي: لا يُعْلِمَنَّ أحداً من الناس بحالكم أو مكانكم. وقوله: ﴿إِن نَّمُورَ إِنْ يَكْضَرُوا عَلَيْنَا﴾ الضمير في ﴿إِن نَّمُورَ﴾ عائد على الكفار، آل دقينوس، ﴿يَكْضَرُوا عَلَيْنَا﴾ معناه يَطَّلِعُوا عليكم ويعلموا خبركم، أو بمعنى يتَّقَوْكُمْ بعُلُوِّهم وغَلَبَتِهِمْ. يقال: ظهر عليه بمعنى غلبه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا ضَالِّينَ﴾ [الصف: 14] أي: غالبيين.

وقوله: ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ قال الزجاج: معناه بالحجارة. قال ابن عطية رحمه الله: وهو الأصح؛ لأنه كان عازماً على قتلهم لو ظفر بهم، و«الرجم» فيما سلف هي كانت - على ما ذكر - قِتْلَةً مخالف دين الناس، إذ هي أشفى لحمة ذلك الدين، ولهم فيها مشاركة. وقال حجاج: ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ معناه بالقول.

وإنما حمل من حمل الرجم على الشتم فقط، لورود ذلك في لغة القرآن في بعض موارد الكلمة، من ذلك قول والد إبراهيم له: ﴿لَا زُجَمَاءَ﴾ [مريم: 46] فقد اتفق على أنه أراد الشتم. وقول قوم نوح له: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: 116].

وجملة يرموكم جواب شرط ﴿إِنْ يَخْضَعُوا عَلَيْكُمْ﴾. ومجموع جملتي الشرط وجوابه دليل على خبر ﴿إِنْ﴾ المحذوف لدلالة الشرط وجوابه عليه.

وقوله: ﴿أَوْ يُعِيدُكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾، أي: يرُدُّوكم قسرا إلى دينهم فتعودوا إلى الكفر بعد إذ هداكم الله للإيمان. ولا يلزم من العود إلى الشيء التلبُّس به قبل، بل يراد به الصيرورة، وهو أكثر استعماله في كلام العرب، يقولون: ما عُدْتُ أفعل كذا، يريدون ابتداء الفعل.

وقوله: ﴿وَلَنْ تَقْلِحُوا وَإِذَا آتَاكُمْ﴾، ﴿إِذَا﴾ حرف جزاء وجواب، والتتوين فيها عوض عن جملة «إذا عدتم»، وأكد النفي في ﴿وَلَنْ﴾ بالظرف ﴿آتَاكُمْ﴾، وفيه المبالغة في التحذير لرفاقه من الفتية من أن يتعرضوا للابتلاء في دينهم لو ظهر عليهم قومهم.

رابعا: لطائف وفوائد:

- في قوله تعالى: ﴿قَلْبَاتِكُمْ يَرْزُقُ مِنْهُ﴾ دليل على تحري الفتية الطيب الحلال في شرائهم ومأكلهم ومشربهم، فمن واجب المؤمن أن يتخذهم قدوة في كسبه وإنفاقه ومأكله ومشربه وفي أحواله كلها؛ لما في ذلك من مظاهر الاستجابة لله تعالى، والتأسي بسنن المرسلين، والوفاء بحقوق الله، وحقوق النفس والمجتمع؛ فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا.

- في قوله تعالى: ﴿قَابَعْتُوْهُ أَمَّا كُتُوبُكُمْ فَلَدِي﴾ دليل على جواز الوكالة وصحتها كما نص على ذلك الجمهور.

- في قوله تعالى: ﴿قَلْبَاتِكُمْ يَرْزُقُ مِنْهُ وَلَيْتَلَكُمَّ وَلَا يَشْعُرَنَّ بِكُمْ وَأَمَّا﴾ دليل على حسن تصرفهم الدال على كمال فطنتهم وأخذهم بالأسباب ومقتضى الحيطة والحذر، وهو كقول يعقوب - عليه السلام - لأبنائه: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ [يوسف: 67]. وهو حقيقة التوكل الذي لا يتنافى مع اتخاذ الأسباب المعينة على المقصود.

التقويم

- 1- ما نوع اللام في قوله تعالى: ﴿لِيَتَسَاءَلُوا﴾؟ وبم تسمى؟
- 2- أستخرج من آتي الدرس قيمة، واقترح وسائل عملية لتطبيقها في حياتي.
- 3- ما تفسير قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْهَضِرُوا أَزْكَى كَهْماً﴾؟ وما القيمة الخلقية والتربوية المستفادة من ذلك؟
- 4- أبين وجه استنباط ابن عطية لحكم الوكالة من الآية.

الاستثمار

قال السيوطي رحمه الله: «فائدة: قَالَ بَعْضُ الْقُرَّاءِ: الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ لَهُ أَنْصَافٌ بِاعْتِبَارَاتٍ: فَنَصْفُهُ بِالْحُرُوفِ النُّونِ مِنْ (نُكْرًا) فِي الْكَهْفِ، وَالْكَافِ مِنَ النِّصْفِ الثَّانِي. وَنِصْفُهُ بِالْكَلِمَاتِ الدَّالُّ مِنْ قَوْلِهِ: (وَالْجُلُودُ) فِي الْحَجِّ، وَقَوْلُهُ: (وَلَهُمْ مَقَامِعُ) مِنَ النِّصْفِ الثَّانِي. وَنِصْفُهُ بِالْآيَاتِ (يَافِكُونَ) مِنْ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ، وَقَوْلُهُ: (فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ) مِنَ النِّصْفِ الثَّانِي. وَنِصْفُهُ عَلَى عِدَادِ السُّورِ آخِرُ الْحَدِيدِ، وَالْمُجَادَلَةُ مِنَ النِّصْفِ الثَّانِي، وَهُوَ عَشْرَةٌ بِالْأَحْزَابِ. وَقِيلَ: إِنَّ النِّصْفَ بِالْحُرُوفِ الْفَاءِ مِنْ قَوْلِهِ: (وَلْيَتَلَطَّفْ)». [الإتقان في علوم القرآن: 1 / 244].

أقرأ النص وأجيب عما يأتي:

- 1- أحدد أنصاف القرآن الواردة في النص.
- 2- أبين أنصاف القرآن الواردة منها في سورة الكهف.

الإعداد القبلي

أراجع تفسير الآيات 21 - 24 من سورة الكهف وأجيب عن الآتي:

- 1- ما الغاية من إطلاع الله الناس على أصحاب الكهف؟
- 2- أحدد النواهي الواردة في الآيات.
- 3- أبحث عن مدلولات العبارات الآتية: أَعْتَرْنَا - غَلَبُوا عَلَمَا أَمْرِهِمْ - رَجَمُوا بِالْغَيْبِ - تَمَلَّرَ.